



لم يغوني، في كل إطلالة تلفزيونية له، شيئاً كالبياض المتفشّي في لحيته، يطلّ فيكثر الشيب ويتكتف، تبيضُ الهيئة والملاح وتزداد هدوءاً وبقيناً، آخرها كان الهدوء وكذلك اليقين، لعالمٍ بحتفه وقد اقترب، لناظرٍ إليه بعين الرضى. كان مودّعاً ومتوعّداً، وقد رأينا اكتمال البياض في لحيته.

لا يملأ السيدُ عباةً وعمامةً وحسب، ولا صاحيته ولا جنوبه ولا حزبه ولا بلده. تخطى السيد ذو اللحية البيضاء أفقاً امتدّ من الجنوب اللبناني إلى الجنوب الفلسطيني، أو كما يحب هو ورفاقه القول، امتدّ على طريق القدس. لكنه امتداد مرّ بسوريا، تائهاً عن الطريق الأولي مقجماً ومقتجماً، قاتلاً ومقتولاً، مبشّعاً في السوريين وفي الحزب وطريقه وطرائقه. لم أتنبه إلى اللحية في طلّاته تلك. لم أكن أريد لا سماع ولا مشاهدة صانع حلم وأمل تأسّس عليه وعيٍ سياسي وثقافي وفكري لجيل من المشرقيين، كنت من بينهم، في عظمة التحرير للجنوب اللبناني قبل دخوله المتسرّع إلى متهات اللعبة السياسية اللبنانية، فعظمة المواجهة في حرب لبنان الثانية، قبل دخوله المتسرّع إلى متهات اللعبة الحربية السورية.

استدرك السيدُ أخيراً واستعاد حالة التحريرين، ٢٠٠٠ و ٢٠٠٦، في العام الأخير وقد نحّي عن الغزيين ما أمكن أن يفوق الكارثة الإبادة المعاشّة هناك، فتقاسم الجنوب اللبناني والجنوب البيروتي مع الجنوب الفلسطيني كوارثه. امتدّ التقاسم ليصل اكتمال البياض وقد غطّى على سواد هنا وهناك منذ التحرير الأول، اكتمل لتصير اللحية دخاناً فغيمةً لا تغيب عن سماءات لبنان وفلسطين، ساريةً بينها جيئةً وذهاباً. في طريق إلى القدس ومنه، مفتوح للغيوم.

أعود إلى لقطات أرشيفية، له بلحيته الفدائية، بسواد عمامته وغضبه الذي حرّر كل الجنوب "خاوة"، ثم أعود إلى ابتكاره اسم "حيفا" بحلّة أجمل بوصلها بـ "إلى ما بعد". أعود إلى مشاهد وخطابات كانت مكوّناً أساسياً لوعي معنى الحق والطريق إليه، أعود إلى قرطة الرء لديه، الأكثر فصاحة وإفصاحاً عن الرء وعن اللغة السليمة السالمة لفظاً ومعنى. يتعلم أحدنا من طلّاته ما يقول وكيف يقوله، بالنبرة الهادئة لأبي هادي، بالإحكام والمتانة في الكلام العامي المرتجل، بالنظرة الصّقرية والحاجيين النسرّيين، بالخاتم الكريم في إصبه، باللحية حسنة التشذيب، وكاد عطرها يفوح عن الشاشة.

لم يبقَ منه سوى اللحية الغيمة، المكتملة في بياضها، الباقية في طهارتها. لم يرحل السيد إلا باكتمالها على محيّاها.



اللحفة التي اكتمل بياضها فصارت غيمة

لعلها الآن غيمة لروحه تحوم في سماء البلاد.

لم يبق سوى أمنيات مكسورة. لبتك لم تدخل سوريا. لبتك دخلت فلسطين.

الكاتب: سليم البيك